تعريف بالكتاب

ثرجيل* هو الشاعر الساحر الذى استطاع بشعره ، وبسحره ، أن يصل بين الأرض والسماء ، وبين الجمال والمنفعة ، وبين الفن والعبادة ، وخاطبه تنيسون فى أغانيه خطابا أشبه بالدعاء والابتهال فقال :

« أنت الذى تبصر الطبيعة السرمدية يديرها العقل السرمدى . أنت الفاخر الزاخر فى شجاك ، وفى أساك ، على المصير المريب الذى تخشاه على بنى الانسان » .

وبمثل هذا الدعاء والابتهال توجه اليه الشاعر الملهم نيكولس J. B. B. Nickols فقال : « ثرجيل » :

« ان حياتنا التى نحار فيها برؤوسنا السقيمة ، ويأبى عليها فرط الاعياء أن تجد العزاء فى طبيعة حية أو فن جميل ، تحس — على رغم من هذا البلاء — عزاءها الخفىّ فى صفحاتك الساحرة ، وفى سكينتك الرفيعة ، تعلو الى ذراها فى آفاقها العليا ، ولكنها لا تبلغ فى السعادة ولا فى الجلال الالهى أن تسمو على ذرع الانسان فى ابتغاء الصبر والسلوان .

(*) أستاذ الأسلوب الملحمى وأهازيج الرعاة فى الشعر اللاتينى . ولد سنة ٧٠ قبل الميلاد ومات سنة ١٩ قبل الميلاد . وكان مفطورا على حب الطبيعة ، ولاغرو فهو ابن مزارع . وفى أناشيد الرعاة التى نظمها فى باكورة حياته مجد حياة الريف . وهو فى زراعياته يصور ما لحياة المزرعة من سحر حقيقى . ويعتبر ثرجيل أعظم شعراء عصره ، وقد امتد تأثيره عبر العصور الوسطى ، ووصفه دانتى بأنه « تتمثل فيه الحكمة البشرية جمعاء » وقد اتخذه دانتى دليلا ومرشدا له فى جوب الجحيم ، فى كوميدياه الالهية .

وأفتتح الشاعر رويدز Royds ترجمة لزراعياته بقوله :

« كان ڤرجيل فى نظر القرون الوسطى ساحرا مباركا ، وراويا عطوفا ، وصانعا للخوارق والأعاجيب ، يتردد اسمه بين أعظم الأسماء ، كلما ذكرت أساطير الخيال وسجلات الأنباء ، ثم عاد عند علماء النهضة شاعرا مرة أخرى ، ولكنه أمير الشعراء الذى لم يتجرد بعد من قداسة السماء ... أما فى عصرنا نحن الذين ورثناهم فهو خلاصة الخلاصة من كل ما اعتقدوه فيه وزيادة ، ولعلنا نتجه اليه وهو أجذب ما يكون لأسماعنا ـ صوتا ناطقا للطبيعة ، لا يمعن صعدا فى رفعته السماوية حتى ينعزل بالقوة والعصمة عن طاقة بنى الانسان ... » .

أما فى هذه الآونة من منتصف القرن العشرين فهو صاحب رسالة من رسائل التعليم ، وألزم ما تكون هذه الرسالة لأولئك الذين يتحدثون عن الأدب الهادف ، أو عن عزلة البروج العاجية فيما ينعتون به الفن الخالص للجمال . فمن ڤرجيل يتعلمون أن العبقرية الساحرة تذيب معادن الجمال والمنفعة معا فى بوتقة واحدة فيخرج منها الجميل النافع والنافع الجميل ، وتصنع بالفن وبالطبيعة ، وبالحقل والحديقة ، وبالزهرة التى تنظر ولا تنفع ، وبالشجرة التى تثمر ولا تقتنى للجمال ، خير ما يصنعه الصائغ الماهر بالنحاس الذى يخرجه من يديه أنفس من الذهب الخالص تمثالا يروع بجماله العيون والنفوس ، ويقتنيه المقتنى تحفة من تحف الفنون وكنزا من كنوز المال .

قيل أن الزراعيات قد نظمت باقتراح زعيم كبير من كبار زعماء الرومان لاحياء حب « الزراعة » فى قلوب أبناء وطنه ، بعد أن شغلتهم عنها نشوة الفتوح وتركوها بين أيدى العبيد كأنها العمل المهين الذى

لا يجمل بالسادة المترفعين ، وكأنما كان المحراث أداة ذليلة لا تجمل بحامل السيف وراكب الجواد .

ونظمها الشاعر الساحر ليتحدث فيها عن غرس الشجر وبذر الحبوب وتربية الطير والماشية ، ويرصد فيها مواسم الزرع والضرع ، ومطالع الأفلاك والأنواء ، ويحوط فيها الحقل بعلم العلماء ، وخبرة الخبراء ، وتعاويذ السحرة وصلوات الدعاء .

فالقصيدة ملحمة من ملاحم السلام ، ولكنها ـ كما حسبها نقاد الأدب ـ من صميم الشـــعر « التعليمى » Didactic الذى يميزون بينه وبين الشعر العاطفى ، أو الشعر الليريكى Lyrics باتجاه هذا الى القلوب واتجاه ذلك الى الرؤوس .

الا أن الشاعر الساحر قد أخرج من هذه الرسالة « التعليمية » نشيدا يطرب القلوب ويصغى اليه السامع كما يصغى الى أنغـــام الغزل وأناشيد الحماسة وألحان الشدو والتغريد فى نضرة الربيع .

وهذه هى رسالته « التعليمية » الى نقاد الأدب فى هذه الآونة ، تعلمهم ما أرادوا أن يجهلوه من قدرة العبقرية على خوارق العادات ، وتنسيهم تلك الفوارق الموضوعة التى يتخطاها سحرة الفنون ويعجز عن عبورها من وقفت به قـدرته عنـد الأسماء والعنـاوين ، وعند « المصطلح » الذى يقيد الفـكر باللفظ ويصنع القول ولا يصنع معنـــاه .

وهم يقولون فى التفرقة بين الشعر التعليمى والشعر الغنائى أن هذا يخاطب العاطفة ليودعها الشعور ، وذاك يخاطب الرأس ليودعه الدروس والمعلومات .

والأحرى بهم أن يرجعوا الى القائل قبل أن يرجعوا الى السامع ، والى موضوع القول والسماع .

فالباعث الذى صدر عنـــه القول أهم من الصدى الذى وصل الى الأسماع .

والقدرة التى استعان بهـا على أداء قوله أهم من الغرض الذى يبتدىء منه وينتهى اليه ، لأن التفرقة بين النفع والجمال — أو الصلة بينهما — تتوقفان على أسلوب الشاعر المقتدر ، وتنتهيان الى غرضه من الشعور أو من التعلم كما أراد .

واذا وجب أن نرجع الى السامع المتلقى قبل أن نرجع الى الشاعر المقتدر ، فلنسأله عما جاش فى نفســـه وعما انتهى الى الشعور به عند تفكيره .

فمن شـــعر الحكمة فى شعرنا العربى أبيات الشريف الرضى من شعره « التعليمى » :

قف موقف الشـــك ، لا يأس ولا طمع
وغالط العيش لا صـــبر ولا جزع

وخادع القلب لا يـــودى الغليـــل به
ان كان قلب عن الماضـين ينخـدع

وكاذب النفس يمتـــد الرجـاء لهـــا
ان الرجاء بصـــدق النفس ينقطع

فربما تعلم سامع هذه الأبيات درسا من دروس الحياة ، ولكن شعوره بحيرة الشـك وشـعوره بموقفه بين قسوة اليأس وغرور الطمع ، وشعوره بمعنى المغالطة التى تفهم ما الصبر فلا تستقر عنده ولا تبتعد عنه ، وتفهم ما الجزع فلا تفضله على الصبر ولا تفضل الصبر عليه ، ثم شعوره بمعنى الخداع فرارا من لذعة الغليل ، ومعنى الشك فى جدوى الخداع التماسا للصبر على فراق الراحلين ، ومعنى الرجاء الذى يكاذب فيه المرء نفســـه ، ومعنى الخوف من انقطاع

الرجاء اذا ابت عليه النفس الا الصدق فيما يرتجيه ـ كل أولئك من الوان الشعور ونقائضه لا يتلقاه السامع برأسه ، ولا يصير منه الى الدرس الذى سكن اليه ـ الا بعد حالة من الجيشان والاضطراب تفتقر فيها الى الحذر منها ، وتلجئه الى الاعتصام بالنصيحة التى أوحاها الشاعر اليه ، وصفة التعليم هنا هى آخر الصفات التى توصف بها الأبيات ويوصف بها ما يماثلها ، فان كان هو الغاية من شعر الشاعر فكل ما فى الطريق الى تلك الغـــاية شعور يتبعــه شعور ، واسم من أسماء العواطف يثير أشباحها فى القلوب قبل النهاية التى ينتهى بها الى الدماغ .

وقد فرق بعض « الظاهريين » من النقاد بين فرجيل فى زراعياته وبين تلميذه دانتى فى ملهاته الالهية ، وخيل اليهم أن قصيدة دانتى وصف ووجدان ، وأن قصيدة فرجيل درس وتعليم ، ولكن « دانتى » نفسه كان أعلم بالشبه القريب بينه وبين أستاذه حين اتخذه دليلا له فى الغابة الغبياء ليهبط منهـا الى قرارة الجحيم ، فما كانت رحلة دانتى فى عالم من الخيال يخرج به عن عالم الحس والواقع المشهود ، وانما كان عالمه الآخر مرسوما فى البديهـــة والنظر كما ترسم البقاع البعيدة من الكرة الأرضـــية على الخرائط الجغرافية ... وما كان قارىء « دانتى » ليخامره الشك لحظة فى هذه الخريطة التى لا فارق بينها فى لغة الوصف الواقعى وبين غابات فرجيـــل وحقوله وأطياره ومواشـــــيه .

* * *

ومما يذكر من ســـمات الخلود فى شـــعر فرجيـــل أن منظوماته التعليمية فى الزراعيات لم تفقد كثيرا من قيمتها بعد هذا المدى الطويل من السنين ، وفيما عـــدا أســـاطير التنجيم عن المواسم والفصول وعن رعاية الأرباب لبعض الأشجار والثمرات وعن مواليد الحيوان ـ

لا يحتاج الزراع اليوم الى غير القليل من التنقيح والتعديل ، او من الحذف والزيادة .

وربما صدق هذا الرأى مع شىء من التحفظ ، ولكن الرأى الذى يقال بغير حاجة الى التحفظ فيه : أنه لا يزال صاحب الرسالة « التعليمية » الأولى فى هداية نقاد العصر الى حقيقة الفروق بين النافع والجميل وبين شعر العقل وشعر العاطفة ، ومنه يتعلم نقاد العصر أن الفضل فى خطاب العقل أو خطاب العاطفة أو خطاب الاثنين معا انما يرجع الى عبقرية الشاعر قبل أن يرجع الى عنوان الموضوع ، وأن هندسته فى البناء هى التى تقيم من البروج العاجية مساكن للنفع والزينة ، وهى التى ـ ان خانته وقصرت به عن رسالته ـ تجعل المسكن المفضل خرابا لا يأوى اليه أحد ولا يأمن عقبى الايواء اليه ، وفى طوايا هذه « الهندسة » سر الجميل النافع ، والنافع الجميل .

عباس محمود العقاد